نعم المال الصالح للرجل الصالح

ملخص الخطبة

1- نظرة الإسلام إلى المال. 2- فوائد جمع المال للمؤمن. 3- الإسلام يحرض على الكسب ويحذر من الكسل. 4- الكسل في طلب الرزق يجعل الإنسان في حاجة الناس ومسألتهم. 5- ذم طبقة الأثرياء والذين شغلتهم الدنيا عن الآخرة. 6- ذم طبقة البطالين الذين زعموا أن الآخرة شغلتهم عن الدنيا وكسبها. 7- فائدة المال للعبد الصالح. 8- ترغيب الإسلام في جمع المال الحلال وتكسبه وترغيبه في العمل.

إن المتتبع لشريعة الإسلام في القرآن والسنة يرى اعتبار المال الصالح قوام الحياة، والحث على تحصيله وحسن تدبيره وتثميره، بل لقد أجمع الأنبياء والرسل قاطبة على الديانة بالتوحيد في مللهم، وعلى حفظ المال والنفس والعقل والعرض.

ومن المسلمات المعلومة بالضرورة، أن المال زينة الحياة الدنيا، وأنه مطلوب محبوب، وأن الإسلام لا يمنع طلبه عن طريق طيبه وحله، بل إنه يحرض على كسبه، وحسن التصرف، لتقضى به الحقوق، وتؤدى الواجبات، وتصان الحرمات.

إن المال في الحقيقة، لا يطلب لذاته في هذه الدنيا، وإنما يطلب عادة، لما يضمنه من مصالح، ولما يحققه من منافع، إنه في حد ذاته وسيلة لا غاية، والوسيلة عادة تحمد أو تعاب بمقدار ما يترتب عليها من نتائج حسنة وآثار سيئة، فالمال كالسلاح، إن كان في يد مجرم قتل به الأبرياء، وإن كان في يد مجاهد مناضل دافع به عن دينه ونفسه وأهله ووطنه، وقد قال تعالى عن المال، وما يسوقه من خير أو شر:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل :5-11].

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ ٱلإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّءاهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:6-7].

وما أسعد المسلم، حين تعتدل أمامه مسالك الحياة، فيعمل ويتصبب عرقه، فيزكيه ذلك العرق ويطهره من فضلات الكسل وجمود النفس، ويكسب الكسب الحلال الطيب، وتستقيم يده، وهي تنفق من هذا الكسب الكريم، ويدخر لنفسه، ما يحتاج إليه في غده. قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: ((إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)) متفق عليه[1]، وقال ﷺ : ((كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)) رواه أحمد ومسلم بنحوه[2].

أيها الناس، نعق كذا ناعق فزعموا بحماقة وصفاقة أن الإسلام لا يريد من أهله إلا أن يكونوا فقراء صاغرين، ويقولون ضالين: إن الله إذا أعطى الدنيا لأحد حرمه من الآخرة، ويستشهدون بقول القائل:

إن الفقيه هو الفقير وإنما راء الفقير تجمعت أطرافها

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف:5].

والواقع ـ أيها المسلمون ـ أن تلك فرية عظيمة، تنسب إلى الإسلام وهو منها براء، بل إن الإسلام هو الذي يحرض على الكسب والنشاط ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرّزْقِ قُلْ هِى لِلَّذِينَ ءامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

[الأعراف:32].

فالمؤمن ليس درويشا في معتكفه، أو راهبا في ديره. لا عمل له ولا كسب، الإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحا عاملا، مؤديا دوره في الحياة، آخذا منها معطيا لها ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝ أَءمِنتُمْ مَّن فِى ٱلسَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك:15]. ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ [هود:61]. ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ [القصص :77].

وقد رأى الفاروق ﷺ قوما قابعين في ركن المسجد بعد صلاة الجمعة، فسألهم من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون على الله، فعلاهم عمر بِدِرَّتِهِ ونهرهم وقال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وإن الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلأرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:10].

وإن الفاروق ﷺ، يشكو من متوكلين لا يعملون، ففي حياتنا المعاصرة نشكو من الأمرين معا، من متوكلين لا يعملون، ومن عاملين لا يتوكلون.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، فيحجون فيأتون إلى مكة فيسألون الناس، فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:197]. قال محمد بن عبيد: كان سفيان الثوري يمر بنا ونحن جلوس بالمسجد الحرام، فيقول: ما يجلسكم؟ قلنا: فما نصنع؟ قال: اطلبوا من فضل الله، ولا تكونوا عيالا على المسلمين.

وسأل رجل ابن حنبل فقال: أيخرج أحدنا إلى مكة متوكلا لا يحمل معه شيئا؟ قال: لا يعجبني، فمن أين

يأكل؟ قال: يتوكل فيعطيه الناس، قال: فإذا لم يعطوه أليس يتشرف حتى يعطوه؟ لا يعجبني هذا، لم يبلغني أن أحدا من أصحاب النبي ﷺ والتابعين فعل هذا، ولكن يعمل ويطلب ويتحرى.

قال رسول الله ﷺ: ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)) رواه أحمد والترمذي وهو صحيح[3].

وهذا الحديث أخطأ القَعَدَة في فهمه، فإن الطيور لم يأتها رزقها رغدا إلى أوكارها، وهي قابعة في أعشاشها، وإنما غدت في الصباح سعيا في طلبه، فراحت في المساء وقد شبعت من رزق الله تعالى وفضله.

أيها المسلمون، إن من المتحتم عقلا أنه لا يدعو المسلمين إلى المسكنة والافتقار والاتكال في القوت على الغير، أو يصف الإسلام بالحض على ذلك إلا أحد اثنين؛ إما جاهل بالدين الحنيف يحسبه رهبانية مبتدعة، أو تبتلا مسرفا، وإما مخادع ماكر له في تلك الدعوة مآرب خبيثة، فهو مطعون النصيحة، خبيث الغاية، كيف لا، ورسول الله ﷺ يقول: ((تعوذوا بالله من الفقر والقلة، والذلة)) رواه أحمد[4]، ويقول ﷺ : ((اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)) رواه أحمد وغيره[5].

إن الشيطان بحيله ومكره يخوف المؤمنين من كسب المال، فينفر طالب الآخرة منه، ويبادر التائب يخرج ما في يده، فإذا أخرجوا ما بأيديهم بذلوا أول السلع في التحصيل، دينهم وعرضهم. ويصيرون متمندلين به، ويقفون في مقام اليد السفلى التي هي الدون، والعاقل من الناس من يسعى لكسب ماله وحفظ ما معه، لينجو من مداراة غني ظالم، أو مداهنة بطر جاهل. وقد تعرض نوائب كالمرض يحتاج

فيها إلى شيء من المال فلا يجد الإنسان بدا من الاضطراب في طلبته، فيبذل عرضه أو دينه.

إن الإسلام، يريد من أهله أن يكونوا أغنياء أقوياء، لا مهازيل ضعفاء، أغنياء بمالهم ليكون سياجا للدين، ومددا لتسليحه وحمايته، فقد قال تعالى في قيمة المال، لإحراز النصر ورفع الشأن: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:6].

فإن الأمم تنتصر بعد توفيق الله، بالمال والبنين، ويوم يكون مالها أداة ترف، ومصدر استعلاء وطغيان، ويوم يكون به الأغنياء أحلاس لهو ولعب؛ فالويل والخسران لأمة، أورثها مالها هذه الحال. أعاذنا الله وإياكم من حال أهل النار.

أيها المسلمون، بالمال الحلال، استطاع المهاجرون إلى المدينة أن يزاحموا اقتصاد أهل الكتاب، وأن يجعلوا المال مالا إسلاميا، وهذا بحد ذاته له خطورته الظاهرة في كسب النصر للدين نفسه، فإن الاقتصاد في الأمم يوم تعبث به أيادي من لا ملة لهم ولا شرف؛ فإنهم يسخرونه ولا شك في ضرب الملة السمحة؛ ولذلك كان الإسلام شديد الحض على أن ينطلق المؤمنون في المشارق والمغارب يكسبون رزقهم ويطلبون من فضل الله، في فجاجه العميقة، هنا وهناك، أو المخبوءة تحت طباق الثرى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى الأرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10].

إن المتبطلين العاطلين، المكتسبين البطالة بالزمالة، يعتمدون على من سواهم، ويستغلون عرق غيرهم، فهم كدود العلق الذي يمتص الدماء، يحملقون إلى مواضع المحسنين، قد قضوا على أنفسهم أن يعيشوا مرضى بالصحة، مشغولين

بـالفراغ، أغنيـاء بـالفقر، ولقـد قـال المصـطفى ﷺ : ((اليد العليـا خـير من اليـد السـفلى))رواه البخـاري ومسلم[6].

قال ابن قتيبة رحمه الله: اليد العليا هي المعطيـة، فالعجب عندي، من قوم يقولـون هي الآخـذة، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوما استطابوا السؤال، فهم يحتجون للدناءة، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم.

عبـاد اللـه، لمـا فقـد المـال الصـالح من يـد الرجـل الصـــالح، بليت المجتمعـــات ـــــ إلا من رحم اللـــه ـ بطائفتين منحرفتين:

الأولى منهما: هي: طائفة الأثرياء المترفين، الذين ضعف عند بعضهم الخلق والـدين، واسـتخفوا بقواعـد الإيمـان ومبـادئ الإسـلام، يـأكلون كمـا تأكـل الأنعـام ويشربون شرب الهيم، دون أن يؤدوا واجبا لـدينهم أو مجتمعهم، يتعـــاملون في الشـــرف على أصـــول من المعـدة، لا من الـروح، وإذا عظمـوا الـدينار والـدرهم فإنما عظموا النفاق والطمع والكـذب، إذ إن حرصـهم فوق بصيرتهم، ولهم في النفوس رائحة الخبز، دينهم في مقـاييس البشـر: خمس وخمس تسـاوي عشـرة، وسـجاياهم المتكـررة، منـع وهـات؛ بـل هـات وهـات، لكنهم مع ذلك لا يجدون في المال معنى الغنى، إذ كم من غني يجد وكأنه لم يجد إلا عكس ما كان يجد!

والطائفة الثانية: طائفة المفلسـين القعـدة الـذين اســتمرؤوا الكســل والبطالــة والتشــرد، دون مــال يملكونه، أو عمل يؤدونه، ومع ذلك يطلقون لأنفسـهم العنان في مباءات من الانحلال والمعاصي، فيجمعـون

بين السوءتين؛ ضلال وإفلاس قبيحين.

إن الـذين يكسـلون ولا يربحـون ثم يتسـولون أو يحتالون باسم التكسب أو العيش، ليسوا على سـواء الطريق، والذين يحبون المال حبا جما، حتى يعميهم عن دينهم وأخلاقهم وخلـواتهم القلبيـة وخلـواتهم الروحيـة، ليسـوا على سـواء الطريـق أيضـا، إذ (كلا طـرفي قصـد الأمـور ذميم)، وخـير الأمـور الوسـط، والوسط ما قاله رسول الهدى ﷺ: ((نعم المال الصالح للرجل الصالح)) رواه أحمد[7].

فرحم الله عبـدا كسـب فتطهـر، واقتصـد فاعتـدل، وذكـر ربـه ولم ينس نصـيبه من الـدنيا. ويـا خيبـة من طغى ماله عليه، وأضاع دينه وكرامته! وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّواْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ [الجمعة:11].

عباد الله، إن المال غادٍ ورائح، ومقبلٌ ومـدبرٌ، ومـا هو إلا وسيلة للإنفاق والبذل، كما قال رسـول اللـه ﷺ : ((أفضـل الصـدقة مـا كـان عن ظهـر غـنى)) رواه البخاري ومسلم[8].

ولا يليق بالرجل القادر، أن يرضى لنفسه، أن يكون حِمْلاً على كاهـل المجتمـع، ثقيلا مـرذولا، وأن يقعـد فارغا من غـير شـغل، أو أن يشـتغل بمـا لا يعنيـه، إن هذا لمن سفه الرأي، وسذاجة العقل، والجهـل بـآداب الإسـلام، قـال عمـر ﷺ: (إني أرى الرجـل فيعجبـني شكله، فإذا سألت عنه فقيـل لي: لا عمـل لـه، سـقط من عيني).

إن العمل، مهما كان حقيرا فهـو خـير من البطالـة، وخير من سؤال أحـد من ذوي المـال؛ إن أعطـاه فقـد حمل ثقل المنة مـع ذُلّ السـؤال، وإن منعـه فقـد بـاء بذل الخيبة مع ذل السـؤال. والعـز بلا سـؤال، ألـذ من كل لذة بسؤال، والخـروج عن ربقـة المنن ولـو بسـف

التراب أفضل، وإن نفس الحر لتحتمل الظما، حتى لقد قال الفاروق: (مكسبة في دناءة خير من سؤال الناس).

ولقد قال لقمان لابنه: (يا بني، استغن بالكسب الحلال، فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته إحدى ثلاث خصال: رقة في دينه، أو ضعف في عقله، أو وهاء في مروءته وأعظم من هذا، استخفاف الناس به).

ولا خير في نيل من ماله عزيز النوال بذل السؤال.

وصلوات الله على المبعوث رحمة للعالمين، حيث يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، وغلبة الدين وقهر الرجال)) أخرجه النسائي وأبو داود[9]، ويقول: ((اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع)) أخرجه النسائي وأبو داود[10].

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن الإسلام رغب في العمل والكسب الحلال، والاتجار في جمع المال؛ فقد سئل رسول الله ﷺ : أي الكسب أفضل قال: ((عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور)) رواه الطبراني وهو صحيح[1]، وقال ﷺ : ((ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)) رواه البخاري[2]. وثبت عنه ﷺ في صحيح مسلم أنه قال: ((كان زكريا عليه السلام نجارا))[3].

وروى الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن النبي ﷺ أنه قال: ((التاجر الصدوق الأمين، مع النبيين والصديقين والشهداء)) [4].

ومر رجل على النبي ﷺ فرأى أصحاب رسول الله ﷺ

من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله، لو كـان هـذا في سبيل الله، فقال رسول اللـه ﷺ : ((إن كـان خـرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين فهـو في سـبيل اللـه، وإن كـان خـرج يسـعى على نفسـه يعفهـا فهـو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء...)) [5].

ولقـد كـان أبـو بكـر رضي الله عنه أتجـر قـريش، وكـان الفاروق رضي الله عنه يقول: (يا أيها الناس كتب عليكم أن يأخذ أحدكم ماله فيبتغي فيه من فضل الله عز وجـل، فـإن فيـه العبـادة والتصـديق، وايم اللـه، لأن أمـوت في شعبتي رحلي، وأنا ابتغي بمالي في الأرض من فضـل الله، أحب إلي من أن أموت على فراشي).

وما قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه حتى بلغت غلـة نخله مائة ألف. وقال عبد الرحمن بن عوف: (يـا حبـذا المال، أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي).

ثم اعلموا ــ رحمكم اللـه ــ: أن البطالـة من أخطـر المشكلات الاجتماعية وأسوئها عاقبة، وأشـدها تـأثيرا على طمأنينـة الحيـاة وهنـاءة العيش، وهي رُقْيَـةُ التسول والسرقة والغش والخداع.

والإسلام نظر إلى المكلـف نظراعتبـار، حيث دعـاه إلى نزول ميادين العمل على أنواعها، إمـا مـأجورا، أو حرا مستقلا، أو مشاركا في المـال إن اسـتطاع. فـإذا صاحب ذلك كلّه، صِدقٌ وأمانة، وإخلاص وتوكل، كان له النجاح والربح والبركة والنماء بإذن الله.

هذا وصلوا ـ رحمكم الله ــ على خـير البريـة وسـيد البشرية...